الحراكات الشبابية الفلسطينية في لبنان بين "العودة" وَ "تحسين مستوى المعيشة"

أنيس محسن *

تسعى هذه المقالة للإضاءة على الحراكات الشبابية للاجئين الفلسطينيين في لبنان: دوافعها واهتماماتها واحتمالاتها وعلاقاتها بالفصائل الفلسطينية، ونظرتها إلى "حق العودة".

يعتبر لبنان نموذجًا خاصًّا في ما يتعلق بالوجود الفلسطيني: الشعبي والسياسي. وتأتي فرادته في هذا الشأن من كونه البلد العربي الوحيد الذي وضع أثقالًا وقيودًا على حركة الفلسطينيين الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، قبل أن ينهار جرّاء الحرب الأهلية اللبنانية في العام 1975 كنتيجة لانقساماته الطائفية، وتنهار معه كل تلك الأثقال والقيود إلى درجة الفوضى، ثم ليستعيد لاحقًا بعض سلطته بمساعدات خارجية: إسرائيلية تارة وعربية ودولية أطوارًا، وتكون النتيجة -فلسطينيًّا- مزيدًا من الأثقال والقيود. ووسط كل تلك الحالات، كان الشباب الفلسطيني يعيش في دوامة المنع من التحرك السياسي والاجتماعي -لبنانيًّا-، أو تذويب خصوصيته -كمجتمع لاجئين له خاصّيّته اللبنانية- في سياق التيار العام الفلسطيني (Mainstream).

تعتمد هذه المقالة على التجربة الخاصة لي بالعمل الشبابي الفلسطيني في ثمانينيات القرن الماضي الذي كان جزءًا لا يتجزأ من العمل الفصائلي، وعلى متابعتي للحراك الشبابي الناشط حاليًّا، ومعرفتي الشخصية بعدد من الشابّات والشبّان الذين يخوضون تجربة شبابية مستقلة عن عمل الفصائل الفلسطينية، وبخاصّة عبْر جمع شهادات لناشطات ونشطاء.

محاولة للخروج من الفشل

يمكن اعتبار الثلث الأخير من تسعينيات القرن الماضي بدايةَ تبلور الحراك الشبابي الفلسطيني غير المرتبط بالفصائل الفلسطينية؛ إذ أخذ آنذاك الإحباطُ يزداد بين الشباب نتيجة فشل الفصائل في التقاط اللحظة والخروج من فكرة "التيار العام" بالنسبة للقضية الفلسطينية الذي يهمّش الخصوصية المكانية والاجتماعية للاجئين، وعدم قدرة تلك الفصائل على تقديم أي بديل للاجئين الفلسطينيين في لبنان في زمن السلم، بعدما كانت قد خسرت الحرب بعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان في 1982 وانقلاب الحلفاء "الوطنيين" على الفصائل الفلسطينية، وهو ما عكسته حرب المخيمات في الفترة الواقعة بين العام 1985 والعام 1987، وتبعية الفصائل للنظام السوري الذي أعاد نشر جيشه في لبنان مَطلعَ تسعينيات القرن الماضي، وعدم قدرة الفصائل على جعل قانون العفو العام الذي أُقِرّ في اتفاق الطائف وصوّت عليه البرلمان اللبناني، يشمل الفلسطينيين، وفشلها أيضًا في تأمين الحقوق المدنية والاجتماعية للاجئين، على الرغم من ارتباط تلك الفصائل بالنظام السوري -الحاكم الفعلي- وبتوافق دولي وعربي للبنان.

بدأ الحراك الشبابي بالظهور في شكله الجديد اعتبارًا من سنة 2007، كنتيجة للمعارك التي شهدها مخيم نهر البارد بين الجيش اللبناني وتنظيم "فتح الإسلام" وما تبعه من تدمير كامل للمخيم، وعدم وفاء الدولة اللبنانية والمجتمع الدولي بتعهداتهما بإعادة بناء المخيم، وفشل الفصائل الفلسطينية في الضغط من أجل إعادة البناء، وفشلها في تشكيل حاضنة للشباب الفلسطيني الذي بدأ يصعّد من مطالبه بتأمين حقوقه المدنية والاقتصادية. كما جاء انتشار الحراكات الشبابية بعد انطلاق ما يسمى بِـ "الربيع العربي"، مدعومًا بانتشار "فطريّ" للمنظمات غير الحكومية الممولة عبْر برامج تمويل غربية للمنظمات غير الحكومية المحلية، واستفادة من برامج التدريب على حقوق الإنسان وبناء القدرات، إلخ...! وفي دلالة على تأثير المنظمات غير الحكومية في الحراكات الشبابية، يقول وسيم، أحد المؤسسين لِـ "الشبكة الشبابية الفلسطينية في لبنان"، إن 24 شابًا وشابّة اجتمعوا لتشكيل الشبكة، كان 22 منهم قد

تلقوا دورات تدريب أقامتها "المنظمة الفلسطينية لحقوق الإنسان" خصوصًا، ومنظمات غير حكومية أخرى بشكل عام.

الشبكة الشبابية كمثال

يمكن الاستدلال على ذلك من خلال منشور لِـ "الشبكة الشبابية الفلسطينية في لبنان"، المنضوية فيها حراكات شبابية عدّة، تحت عنوان: "واقع شبابي جديد"، وتقول فيه: "تزامنت فكرة الشبكة الشبابية الفلسطينية استجابة لظروف موضوعية، مع بروز عدد من المبادرات الشبابية في معظم المخيمات الفلسطينية في لبنان، والتي قد يكون للانتفاضات الشبابية العربية دَوْر محفِّز على الرغم من الاختلاف في طبيعة وضع الشباب الفلسطيني؛ فهو إما تحت الاحتلال أو إنّه لاجئ تحكمه قوانين مجحفة تحرمه من أبسط حقوقه الإنسانية، خاصة في لبنان، وفاقم منعُه من حق العمل وحق التملك وحرية التنقل من معاناته، إضافة الى الواقع السياسي المزري الناتج عن انسداد أفق السلام والانقسام الحاد على المستويين السياسي والمجتمعي، وتردي الأوضاع الأمنية والإدارية والخدماتية في المخيمات".

والشبكة التي تمثل حراكات شبابية في مخيمات شمال لبنان (البارد والبداوي)، وبيروت (شاتيلا وبرج البراجنة)، وصيدا (عين الحلوة)، وصور (الرشيدية وبرج الشمالي والبص)، وتؤكد انتماءها لِـ "التيار العام" رغم إصرارها على التنبه لخصوصية وضع اللاجئين في لبنان، ترى أن "القيادة الفلسطينية في لبنان بمختلف أوجهها (ولا نستثني أحدًا اطلاقًا) باتت أصغر بكثير مما نصبو إليه، وليس خفيًّا على أحد مستوى العجز والتراجع والفساد الذي أمعن فيها حتى وصلنا إلى ما نحن فيه. لستم جبناء ولستم خونة، ولن نسمح أن يقال عنكم كذلك. نعم لقد ضاقت بنا السبل".

ولأن الكثير من الحراكات الشبابية هي عمليًا مقتصرة على وسائل التواصل الاجتماعي، أكتفي بما أوردته من منطلقات وأهداف "الشبكة الشبابية الفلسطينية في لبنان" الموجودة ميدانيًّا وعلى شبكة التواصل الاجتماعي، مع الإشارة إلى الأندية الثقافية في المخيمات والجامعات التي تلعب دورًا ثقافيًّا أكبر من دورها السياسي والاجتماعي، وهي ممثَّلة في "هيئة تنسيق عمل الأندية الثقافية الفلسطينية المستقلة"،

ولها صفحة مشتركة على موقع "فيسبوك"، تتشارك الأفكار والنشاطات والدعوات والتعرف أكثر بعضها على بعض. والمشاركون هم: النادي الثقافي الفلسطيني العربي؛ النادي الثقافي الفلسطيني في الجامعة الأميركية؛ النادي الثقافي الفلسطيني في الجامعة اللبنانية الأميركية؛ النادي الثقافي الفلسطيني في جامعة بيروت العربية؛ النادي الثقافي الفلسطيني - شاتيلا.[1]

لا عودة... لنحسن واقعنا

يجمع الكثير من الشباب الفلسطيني غير المرتبط بالفصائل على استحالة العودة، وهو ما يجعلهم يركزون على تحسين الأوضاع المعيشية داخل المخيمات.

وإذا كانت سلسلة الخسائر والهزائم التي منيت بها الفصائل ميدانيًّا أمام إسرائيل والمليشيات المسلحة في لبنان قد مثلت، إلى جانب فشل عملية السلام، عنصرًا من عناصر الإحباط بشأن العودة إلى فلسطين؛ فإن استخدام "حق العودة" من قِبَل فصائل فلسطينية وأحزاب لبنانية لها خلال مسيرة "العودة" انطلاقًا من جنوب في لبنان في الـ 15 من أيار / مايو عام 2011[2] ومن الجولان في سوريا في الخامس من حزيران / يونيو[3]، شكلت إحباطًا جديدًا. فبعد مسيرة العودة من جنوب لبنان، أبلغني أحد الشباب المنتمين إلى أحد الفصائل أنه اكتشف، هو والشباب المستقلّون الذين كانوا يحضرون اجتماعات لتنسيق المسيرة، أن الفصائل الفلسطينية والأحزاب اللبنانية المشاركة، عملت على استغلال المناسبة للتأثير على مجريات الأمور في سوريا، وأنهم بسبب ذلك رفضوا لاحقًا القيام بمسيرة في الخامس من حزيران /يونيو، ولا سيّما أن الضحايا الذين سقطوا والجرحى في مسيرة "العودة" بدأت الفصائل تتسابق على تبنّيهم، ممّا أوجد حالة من "القرف" دفعت هذا الشاب المتحمس لفصيله، لاحقًا، إلى الاستقالة، ثم الهجرة. أما مسيرة الخامس من حزيران /يونيو في الجولان، فكانت كارثة حقيقية، إذ سقط عدد من الشهداء بينهم

---

[1] المزيد عن "هيئة تنسيق عمل الأندية الثقافية الفلسطينية المستقلة" في موقع "فيسبوك"، في الرابط الإلكتروني:
http://www.facebook.com/groups/palarabclub

[2] أنيس محسن، "'مسيرة العودة'.. فعل شعبي أقوى من التجيير"، جريدة "المستقبل" اللبنانية، 2011/5/28، في الرابط الإلكتروني:
http://www.almustaqbal.com/stories.aspx?StoryID=468746

[3] أنيس محسن، "'الغرفة السوداء' من مارون الراس إلى القنيطرة"، جريدة "المستقبل" اللبنانية، 2011/6/9، في الرابط الإلكتروني:
http://www.almustaqbal.com/stories.aspx?StoryID=470584

فتاة، وخلال تشييعها في مخيم اليرموك طرد المشيعون مسؤولي الفصائل، واشتبكوا مع عناصر من القيادة العامة، وتسبب ذلك في سقوط جرحى، وهو حادث سوف يؤسس لاحقًا، بعد أن تعسكرت الانتفاضة في سوريا، لاشتباكات دموية بين المخيم وعناصر القيادة العامة.

في دلالة على تأثر الشباب الفلسطيني بمجموعة تلك التطورات، ولا سيّما حادثتَيْ جنوب لبنان والجولان في عام 2011، تقول سعاد (اسم مستعار بطلب من المتحدثة) إن تجربتها القصيرة مع الناشطين الشبابيين الفلسطينيين في لبنان وضعتها أمام حقيقة صعوبة العمل من أجل فلسطين، عندما يكون الشباب فاقدين للحوافز "فكل واحد ممن التقيتهم يقول: "حلمي هو العودة إلى فلسطين"، لكن ما من أحد منهم يؤمن بأنه يمكن له أن يقوم بشيء ملموس لتحقيق هذا الحلم. وهذا يخلق الكثير من الإحباط. لكن كلهم يقولون إن بإمكانهم القيام بشيء ملموس لتحسين ظروف الحياة للاجئين الفلسطينيين في لبنان".

وتضيف: "في مخيم الرشيدية في منطقة صور، يعمل أعضاء مجموعة "أولاد المخيم" على مشاريع لتحسين أوضاع المخيم وأهله"، وفيما تعدد بعض المبادرات التي تقوم بها المجموعة ومن ضمنها إنشاء مقهى "حنظلة" لجمع الشباب، تشير إلى تنسيق بين هذه المجموعة ومجموعات شبابية في مخيمات في صور وبيروت أيضًا، مثل مجموعة "معًا"، وتقول إن مبادرات الشباب تلك تحتاج إلى تمويل، والتمويل إما غير متاح، أو إن بعض الشباب يرفضون التمويل كي يتلافوا الوقوع تحت تأثير البرامج المُسْقَطة من قِبَل الممولين، أو خوفًا من اتهامهم بالعمالة إذا تلقوا تمويلاً من USAID مثلًا، أو بالتآمر إذا تلقوا الدعم المالي من القيادي المفصول من حركة "فتح" محمد دحلان.

ويقول أحمد، الناشط في "الشبكة الشبابية"، إن الصعوبات في المخيم وعدم قدرة الفصائل على استيعاب الشباب المستقل وغير المنتمي سياسيًّا، دفع هؤلاء إلى تشكيل مجموعات شبابية من خارج الفصائل. ويعكس أحمد النظرةَ السوداوية للشباب في المخيمات، ويقول إن الشباب في المخيمات يرون مستقبلًا مظلمًا، وبخاصّة بسبب اقتناعهم باستحالة العودة إلى فلسطين. وفيما يحمل الفصائل

مسؤولية تردّي الوضع المعيشي للفلسطينيين، في لبنان عامة والمخيمات خاصة، بسبب عدم كفاءة مسؤولي وكوادر الفصائل، يرى أن ما يمكن أن تنجزه الحراكات مقتصر على تحسين هذا الواقع.

حق الهجرة؟!

يكتب الصحافي اللبناني وفيق هواري في موقع "جنوبية" الإلكتروني تحت عنوان "الشباب الفلسطيني: من حق العودة إلى حق الهجرة"، فيقول: "في العام 2003، حضر أحد الطلاب الفرنسيين لإعداد أطروحة حول ما يريده الفلسطينيون. ساعدته في لقاء نحو 30 شخصًا، أجرى مقابلات معهم. وفي نهاية الأسبوع، أبدى ملاحظة حول اتفاق الجميع على مطلب واحد هو حق العودة. والإصرار على تنفيذ هذا الحق بالوسائل الممكنة كافة. وفي العام 2014، حصلت اعتصامات وعمّت معظم المخيمات الفلسطينية، وكان هناك اتفاق بين الشباب على تنظيمها صباح يوم الأحد من كل أسبوع. يرفعون مطلبًا واحدًا هو تسهيل خروجهم من لبنان نحو المجهول، الذي يصفونه أنه مهما بلغ من السوء سيكون أفضل من الوضع في لبنان".[4]

بدأت الدعوة إلى "حق الهجرة" عبر تعليق (Post) لشاب فلسطيني على "فايسبوك" تناقله عدد كبير من الشبان والشابات، لتظهر بعده مجموعة تطلق على نفسها "حملة حق الهجرة" وتنظّم تظاهرات واعتصامات داخل المخيمات.

عندما وجهت سؤالًا إلى علي (...) -وهو أحد المشاركين في الحملة- عمّا إذا كان المشاركون في الحملة مهتمين بعد مطالبتهم بالهجرة بالعودة إلى فلسطين، فبادرني إلى القول إن هذا لا يلغي ذاك، فيمكن له ولزميلاته وزملائه أن يطالبوا بحق العودة، أو أن يعودوا وهم يحملون جنسيات أخرى، فيما في لبنان باتت الحياة مستحيلة مع كل القيود الاقتصادية والاجتماعية والقانونية المفروضة، وبعدما تخلت كل الفصائل عمليًّا عن حق العودة، وتركت اللاجئين إلى مصيرهم، وفشلت حتى في تأمين الحد الأدنى من الحقوق لهم في لبنان.

[4] وفيق هواري، "الشباب الفلسطيني: من حق العودة إلى حق الهجرة"، الموقع الإلكتروني "جنوبية"، في الرابط:
http://janoubiaonline.com/modules.php/modules.php?name=News&file=article&sid=12418

أما رد فعل الفصائل، فكانت -حتى نشوء "حملة حق الهجرة"- تكتفي باتهام الحراكات الشبابية المستقلة بالارتهان للمنظمات غير الحكومية المرتهنة أساسًا للمموّلين الغربيين (المنظمات غير الحكومية ترد الاتهام أن السلطة الفلسطينية ومنظمة التحرير مرتهنتان لممولين عرب وأجانب وخصوصًا للتمويل الأميركي، وأن الفصائل "الممانعة" يأتي تمويلها من إيران، فيختلف الممول ويبقى المفهوم واحدًا، هو وضع الممول شروطه الخاصة السياسية؛ أما المنظمات غير الحكومية، فإن شروط تمويلها متصلة بوفائها بمنظومة حقوق الانسان والجندرة). وبعد "حملة حق الهجرة" أصبح الاتهام هو العمالة، الأمر الذي جعل الشباب المشارك في الحملة يتخذ موقفًا أكثر سلبية من الفصائل. كما أن الفصائل توافقت على إنشاء حركة شبابية مرتبطة بها تحت اسم "شبابنا"، لكنها غير فاعلة، وجل ما تقوم به هو إصدار بيانات وتوزيعها بالبريد الإلكتروني.

ويدافع أحمد (من "الشبكة الشبابية") عن المجموعات الشبابية المطالِبة بـِ "حق الهجرة"، بقوله إن هؤلاء هم "ضحايا الفصائل مجتمِعة".

خلاصة

إن ما يمكن استخلاصه، من التجربة التي يقوم بها الشباب الفلسطيني في لبنان، أن ضعف الوضع الفلسطيني عامّة، واستثناء اللاجئين عمليًّا من المشارَكة في بحث مصيرهم في المفاوضات بين منظمة التحرير وإسرائيل منذ مؤتمر مدريد في عام 1991، وتهميشهم من قبل الفصائل العاملة في لبنان، وعدم الأخذ بعين الاعتبار تطلعاتهم ومطالباتهم بتحسين أوضاعهم، والاستمرار باستخدامهم في المزايدات الفصائلية، والتمييز ضدهم اقتصاديًّا وقانونيًّا في لبنان، أوجد حالة من الإحباط لديهم ودفع بعضهم إلى المطالبة بـِ "حق الهجرة"، فيما البعض الآخر بات همّه الأساسي تحسين ظروف الحياة في المخيم، وكلهم استحال "حق العودة" لديهم من حلم قد يتحقق، إلى حلم مستحيل لا يمكن تحقيقه.

إن فشل الفصائل في تحقيق حد أدنى من مطالب اللاجئين على المستوى الوطني، وتحسين أوضاعهم الحياتية على المستوى المحلي، دفع الشباب إلى الانفضاض عن الفصائل وتشكيل حراكات شبابية، تحاول

ملء الفراغ الناشئ عن ضعف الفصائل، لكن على نحوٍ فوضوي قابل للاستغلال، ما لم تتنبه القيادات السياسية الفلسطينية لخطورة الوضع ولأهمّيّة الشروع في وضع برامج عملية تلامس أفكار الشباب ومطالبهم المحقة.

لكن من الملاحظ أن الحراكات الشبابية، على اختلاف أفكارها وأهدافها، شاركت بفاعلية في حملات التضامن مع غزة خلال العدوان الأخير، وعمليًّا هي لا تمتلك سوى القدرة على التضامن، إذ لا يمكن القيام بفعل في هذا الشأن مع إقفال الحدود في لبنان، وأعمال القتال العنيفة في سوريا، وعدم إرادة أو قدرة الفصائل -من الأصل- على القيام بأكثر من عملية تضامن عبر تظاهرات واعتصامات وخطابات وبيانات وسوى ذلك... المقصود أنه في ظل الأزمات الكبرى يمكن للشباب الفلسطيني في لبنان، الذي بات أكثر استقلاليةً عن الفصائل، أن يضعوا جانبًا ومؤقتًا همومهم الخاصة، وأن يعملوا في إطار عام. لكن شعور الشباب بأنهم منسيون كلاجئين وغير مُدْرَجين، في حقيقة الأمر، ضمن ما طُرِح ويُطرَح من حلول للقضية الفلسطينية، يزيد إحباطَهم إحباطًا، علمًا أنهم يمكن أن يكونوا مبادرين كونهم يمتلكون قدرات ذاتية، وبالتالي إذا وُجدت ظروف موضوعية تتيح لهم القيام بمبادرات وطنية فإنهم مهيَّؤون للقيام بها، ومبادرون إليها في كثير من الأحيان.

* **أنيس محسن**، صحافي فلسطيني مقيم في لبنان.